المحاضرة الرابعة: فلسفة اللغة والسيمائيات من بيرس إلى أمبيرتو إيكو

المقدمة

سنحاول في هذه المحاضرة الشيقة أن نبسط مفهوم السيميائيات أو ما يسمي بعلم العلامات دون أن ندخل في التفاصيل التي يعالجها الادب. وهدفنا أن نأخذ فكرة عامة عن السيميائيات تساعد الطالب على فهم المصطلح مع الإشارة الى اهم اعلام من رواد السيميائيات.

ولا شك أنّ السيميائيات، أو علم العلامات، من أهم العلوم التي برزت في القرن العشرين وامتد تأثيرها إلى مجالات واسعة مثل: اللغة، والأدب، والإعلام، والفنون، والثقافة، وحتى على صعيد الحياة اليومية. فالسيميائيات على نحو عام تسلط الضوء على دراسة الإنسان وهو يصنع المعنى من خلال الرموز. فالإنسان فيما هو يعيش حياته يصنع علامات يعيش بها، ومن خلالها ينتج المعنى. يظهر ذلك في طريقة: اللباس، في الاحتفالات، في عرض المأكولات... وقد تطوّر هذا العلم على أيدي كبار المفكرين مثل بيرس، سوسير، بارت، وإيكو، كلٌ منهم أضاف لبنة إلى هذا الصرح المعرفي.

ولكن قبل أن نعرج على أبرز المفكرين الذين تناولوا السيميائيات لا بد من أن نشير إلى مفهومها اللغوي والاصطلاحي.

أولا: مفهوم السيميائيات

1. من الناحية اللغوية: من حيث أصل الكلمة: فالسيميائيات كلمة مأخوذة من اللفظة اليونانية سيمِيون ومعناها: العلامة. وفي اللاتينية ظهرت كلمة SEMIOTICA :وفي الإنجليزية SEMIOTICS وفي الفرنسية تقابلها كلمةSÉMIOTIQUE

وفي اللغة العربية: نجد كلمة سِيماء وردت في العربية القديمة، ومعناها: العلامة، الدليل، أو الأثر، أو المِيزَة الظاهرة أو السِّمَة التي يُعرَف بها الشيء. وعموما: تعني كلمة سيماء في اللغة العربية العلامة بأنها: السِّمة الظاهرة التي يُعرَف بها الشيء أو الشخص. وهي مأخوذة من الجذر "و-س-م" الذي يدلّ على الوَسْم والتأشير والتحديد. وقد وردت في الاستعمال العربي للدلالة على الأثر الذي يكشف عن صاحبِه، كما في قوله تعالى:﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم ﴾أي علامتهم البادية عليهم. وتُستعمل الكلمة للدلالة على الصفات الظاهرة، والإشارات الدالة، وكل أثر يدلّ على معنى أو حال، سواء كان في المظهر أو السلوك أو الهيئة. (فزاري، 2007)

2.اصطلاحا :

السيميائيات: هي مصطلح حديث مُعرَّب عن اللفظة الأوروبيةSEMIOTICS ، المأخوذة من اليونانية "سيمييون" بمعنى العلامة. ويشير هذا المصطلح إلى علم العلامات، أي الدراسة العلمية للرموز، والدوالّ، وأنظمة المعنى في اللغة والثقافة والفنون والتواصل. او هي العلم الذي يدرس العلامات: كيف تُبنى، وكيف تعمل، وكيف تنتج المعنى في التواصل الإنساني (تشاندلر، 2020).

والعلامة ليست فقط كلمة بل يمكن ان تكون صورة، إيماءة، لون، حركة، صوت، زيّ، شعار... أي كل ما يمكن أن يدل على معنى. بهذا تهتم السيميولوجيا بدراسة العلامات بمختلف أشكالها، سواء كانت لغوية أم غير لغوية؛ فهي لا تقتصر على المنطوق فحسب، بل تمتد لتشمل العلامات البصرية والرمزية، مثل إشارات المرور، ولغة الصم والبكم، والشفرات السرية، إضافة إلى دراسة الأزياء وأنماط الطبخ وغيرها من الأنظمة الدلالية في الحياة الاجتماعية. (ويكيبيديا)

فطريقة اللباس علامة، واللون الأسود علامة، وعلم دولة علامة، واللون الأبيض علامة، وطقوس دفن الميت علامات، وطقوس الزواج علامات، والاحتفال بيوم الاستقلال وما يضمه من بروتوكولات ومراسيم علامات. ولكن السؤال المطروح لماذا ندرس العلامات: الجواب: لأنها أساس بناء المعاني والمشاعر بين الافراد والشعوب. كما أنها أداة للتواصل بين الناس والثقافات، والعلامات مفتاح لفهم الثقافة الأجنبية، فكل مجتمع له علامات هويته تبنى من من خلال رموزه. فالسيميائيات تمنحنا القدرة على قراءة العالم كما نقرأ النصوص.

ثانيا: أبرز الاعلام :

1. تشارلز ساندرز بيرس 1839–1914

أ. مفهوم العلامة عند بيرس: العلامة عند بيرس هي شيء يمثل شيئًا ما، لشخص معين في سياق محدد ويثير فهمًا أو تفسيرًا. فالعلامة ليست مجرد إشارة بسيطة، بل تقوم على ثلاثة عناصر وهي :

-**العلامة :(REPRESENTAMEN)** هي الشيء الذي يظهر أمامنا ويُثير لدينا معنى ما. وقد تكون العلامة عبارة عن كلمة، أو صورة، أو صوتًا، أو رمزًا.... أي، العلامة هي أي شيء يمكن أن يُستخدم لتمثيل شيء آخر،

-**الموضوع : (OBJECT)** وهو الشيء الذي تشير إليه العلامة.، أي المعنى

-**المؤول :(INTERPRETANT)** وهو الانسان الذي يؤول العلامة، ويبحث لها عن معنى (مدقدم، 2016).

ب. أنواع العلامات عند بيرس: قسّم بيرس العلامات إلى ثلاثة أنواع رئيسية:

الأيقونة: الأيقونة هي علامة تشبه الشيء الذي تمثّله. أي أنّ المتلقي يستطيع فهمها بمجرّد النظر إليها، لأن العلاقة بين العلامة والموضوع قائمة على المحاكاة. وبمعنى آخر: الأيقونة تُحاكي موضوعها، وتقدّم صورة عنه، فتقوده إلى المعنى مباشرة. فعندما نرى صورة لشجرة نفهم معنى الشجرة أو عندما تعرض علينا خريطة بلد حيث نتعرف على البلد من خلالها، أو صورة وجه حيث يدلنا على شخص ما. مثال آخر: طفل يرى صورة قطة، فيعرف أنها قطة دون أن يعرف لغة. وقد نرى خريطة الجزائر، فتتعرف على انها تشير الى بلد الجزائر. "على سبيل المثال، أيقونة سلة المهملات على سطح المكتب في أجهزة الكمبيوتر تشير بوضوح إلى وظيفة حذف الملفات، مما يسهل على المستخدمين فهم وظيفتها دون الحاجة إلى قراءة تعليمات معقدة" (الموسوعة، دون تاريخ).

المؤشّر: المؤشّر هو علامة ترتبط بموضوعها ارتباطًا مباشرًا، إمّا بعلاقة سببية (سبب ونتيجة)، أو مجاورة (وجود الشيء قرب الشيء). أمثلة واضحة على المؤشّرات: مؤشر الدخان يدلّ على وجود النار. صحيح أنّ الدخان لا يشبه النار، لكنه ناتج عنها. مؤشر الغيوم السوداء تدل على المطر. وبصمة الإصبع

تدل على صاحبها لأنها أثر مباشر لوجوده. رنين جرس الباب يدل على وجود شخص بالخارج. كما أنّ الآثار على الرمال تدل على مرور شخص أو حيوان.

الرمز: يعتبر الرمز عند بيرس هو أرقى أنواع العلامات، لأنه يعتمد على الثقافة والعرف والاتفاق الاجتماعي، وليس على التشابه أو الصلة المباشرة بالواقع. بمعنى آخر: الرمز يفهمه الإنسان لأنه تعلّم معناه داخل المجتمع. امثلة: كلمة "كتاب" لا تشبه الكتاب الحقيقي. لكنّ المجتمع اتفق على أن هذه الكلمة تشير إلى ذلك الشيء. مثال آخر: إشارات المرور: الأحمر علامة على ضرورة التوقّف. فلا سبب طبيعي يجعل اللون الأحمر يعني التوقف، لكنه اتفاق جماعي. ومن امثلة العلامات: الرموز الدينية والثقافية. فالهلال رمز الإسلام والصليب رمز المسيحية والميزان رمز العدل. كل هذه رموز لا تعتمد على التشابه، بل على المعنى المتوارث. ونجد من العلامات: الرموز السياسية والوطنية. مثل: العلم الوطني والنشيد. وفي الحياة الاجتماعية نجد أن البعض يفضل ارتداء اللباس الأسود كعلامة على الحزن.

2. فرديناند دي سوسير 1857–1913

ميز دي سوسير بين :

أ - التمييز بين الدال والمدلول: على خلاف بيرس الذي قدّم نموذجًا ثلاثيًا، كان سوسير يعتقد أن العلامة تقوم على عنصرين فقط:

-**الدالّ (SIGNIFIER)** وهو الصيغة الصوتية أو الشكل المادي للكلمة. مثلاً: أصوات كلمة "شجرة" أو حروفها.

-**المدلول :(SIGNIFIED)** وهو المعنى الذهني المرتبط بالدال. صورة الشجرة في ذهنك.

العلاقة بين الدال والمدلول عند دو سوسير هي علاقة اعتباطية، أي لا يوجد سبب طبيعي يجعل صوت "شجرة" يعني شجرة، بل هذا من صنع العرف الاجتماعي. وهذه العلاقة اعتباطية، تقوم على التقليد الاجتماعي. (عزام، 2014)

ب - التمييز بين اللغة والكلام

اللغة :(LANGUE) فاللغة عند سوسير هي النظام الجماعي الذي يشترك فيه أفراد المجتمع. وهي القواعد والآليات والمعجم والبنية التي نتوارثها ونستخدمها جميعًا. وخصائصها انها :

-**اجتماعية:** أي انها ليست ملكًا لفرد واحد.

-**ثابتة نسبيًا:** تتغيّر ببطء عبر الزمن.

-**نظام من القواعد:** أصوات، تركيب، دلالة...

-**موجودة في الذهن الجماعي**: مثل التراث اللغوي المشترك.

-**قابلة للتنظيم والتحليل:** يمكن دراسة قواعدها وتركيبها بشكل علمي. (بوجليع، 2024)

مثال: العربية الفصحى بوصفها نسقًا له قواعد وصرف ونحو ومعجم متفق عليه.

الكلام :(PAROLE) الكلام هو الاستعمال الفردي للغة، إنه ما ينطق به الشخص في موقف معين، بصوته الخاص، وبطريقته الخاصة. ومن خصائصه انه :

شخصي: يختلف من متكلم لآخر.

متغيّر: يتبدل بحسب الحالة النفسية، والسياق، والظروف.

عمليّ: هو اللغة في لحظة استعمالها.

جزئي: لا يمثل النظام كله، بل عيّنة منه.

مثال: ما يقوله شخص الآن في محاضرة، أو رسالة يكتبها، أو أسلوبه الخاص في التعبير.

"الكلام هو العمل الفردي المنطوق أو المكتوب، والذي يُمكن أن يُحس بالسمع والبصر، بينما اللغة هي القواعد العامة والحدود الموصوفة في كتب اللغة، وكلاهما أيّ اللغة والكلام لا يُمكن إخضاعهما للدراسة العلمية، لكون الكلام عملًا فرديًا خاضعًا للاختيار؛ وبالتالي لا يُمكن التنبؤ به، ولكون اللغة عملًا جماعيًا، لكنه يختص بالفرد والجامعة معًا، فهي ليست واقعةً اجتماعيةً خالصةً" (حميد، 2023).

ج -اللغة نظام اجتماعي: اللغة، في نظر سوسير، ليست شيئًا شخصيًا يملكه المتكلم. بل هي مجموع القواعد والأصوات والمعاني التي اتفق عليها المجتمع. مثل: النحو والصرف والمعجم والأساليب والدلالات وكلها ليست إبداعًا فرديًا، بل هي ملك للمجموعة اللغوية. فعندما يولد الإنسان، يجد اللغة سابقة على وجوده: جاهزة، مستقرة، لها قوانينها التي صاغتها أجيال كثيرة قبله. فهو لا يقرر معنى الكلمات، ولا يقرر قواعد النحو. بل يتلقى اللغة ويدخل في نظامها. فاللغة — بما أنها نظام جماعي — يمكن دراستها ككل منظم، كأي مؤسسة من مؤسسات المجتمع.

3. رولان بارت: الأسطورة والرموز اليومية

يعتبر رولان بارت (1915–1980) أحد أبرز مفكّري القرن العشرين في الدراسات اللغوية والثقافية. وقد ساهم في تطوير السيميائيات عبر نقلها من حدود اللغة الى الثقافة، بحيث أصبحت تُعالج كل ما يحيط بنا من رموز وصور وخطابات. تميّز بارت بقدرته على الجمع بين التحليل البنيوي الدقيق والاهتمام بالتقاليد الثقافية التي تشكّل الوعي والهوية و" يؤكد بارت أن كثيرا مما حولنا يمكن أن يكون نصوصا سيميولوجية، بمعنى أن كل ما نراه في مجتمعاتنا في الملابس والميديا وسائر الإنتاج المرئي (في التلفزيون والسينما والصحف والإعلانات)، فكلها نصوص قابلة للتأويل، والتعبير عن المجتمع وتوجهاته وآرائه ومقاييسه، وبهذا نستطيع قراءة المجتمعات من خلال ما يتبدى منها من علامات مرئية رائجة، بل يمكن النظر في أوجه التشابه والاختلاف بين المجتمعات من خلال السيميائيات المشتركة، فيما يسمى الهوية "IDENTIFICATION "التي تتيح لنا قراءة المجتمعات المعاصرة من خلال أمثلة الميديا" (جمعة، 2019)

أ - مفهوم العلامة عند بارت: اعتمد بارت على الإرث السوسيري، حيث تتكوّن العلامة من دالّ (شكل) ومدلول (مفهوم).

لكنّه وسّع من هذا المفهوم ليشمل: اللغة الطبيعية (الكلام والكتابة) والصور والإعلانات والظواهر اليومية كاللباس، والطعام، والطرقات، والطقوس... بهذا المعنى، تتحوّل الثقافة كلها إلى نظام علامات يخضع للدراسة والفهم حيث "تخطي بارت لفكرة النص المكتوب إلى ما هو مرئي ومتداول فرديا كان أو جماعيا،

والتعامل مع سائر الأيقونات والعلامات المنتجة بوصفها نصوصا معبرة عن أفكار ورؤى ومشاعر واتجاهات وتوجهات سوسيوثقافية" (جمعة، 2019).

ب - الدلالة المباشرة والدلالة الإيحائية عند رولان بارت

ميّز بارت بين مستويين في المعنى:

-الدلالة الأولى :(DENOTATION) والمتمثلة في المعنى المباشر الواضح.

-الدلالة الإيحائية :(CONNOTATION) المعنى الثقافي العميق المرتبط بالعادات والرموز والتقاليد.

مثال: صورة وردة حمراء، فالدلالة الأولى: زهرة نباتية. الدلالة الثانية: الحب، العاطفة، الأنوثة... وهي كلها دلالات مبنية على إرث ثقافي.

إعلان سيارة: قد يرمز إلى الحرية، القوة، أو الحداثة حسب الرسالة الإعلانية والسياق الاجتماعي (الخطيبي، 2016)

ج -الأسطورة الحديثة(MYTHOLOGIES)

في كتابه الشهير أسطوريات (1957)، درس بارت كيف تنتج الثقافة "أساطير" جديدة عبر الإعلام والاستهلاك. فالأسطورة عند بارت ليست خرافة، بل خطاب ثقافي. وهي طريقة تحوّل بها الثقافة الأشياء اليومية إلى رموز تحمل معنى جماعياً. ومن أمثلة تناولها بارت:

-الإعلانات التجارية : حيث تتحول السيارة عبر الإعلان الى رمز للقوة والحداثة والحرية...

-نجوم السينما : أصبح نجوم السينما اليوم كرمز وعلامة على الجمال والنجاح.

-الرياضة : حيث تصبح المنافسات الرياضية حاملة لرموز الوطنية والتنافس والشجاعة.

-الطعام والموضة : تصبح رموزًا ثقافية تحمل معانٍ اجتماعية. (كولر، 2016، الصفحات 31-37)

د - موت المؤلف عند رولان بارت :

طرح بارت مفهوم "موت المؤلف" ليؤكد أنّ المعنى لا يصدر من نية الكاتب، بل من عمل القارئ.

فالنص—في نظره—لا يملك معنى واحداً ثابتاً، بل ينفتح على تأويلات لا نهائية. هذا المبدأ أساسي في الدراسات السيميائية: فالعلامة ليست ما يقصده صاحبها فقط، بل ما تُؤوّله الثقافة. (عمـــــــــــــــر، 2018)

مثال ذلك: إذا أخذنا رواية كلاسيكية مثل أحدب نوتردام، فالمؤلف كتب قصة محددة. والقارئ اليوم قد يفسر الشخصيات والرموز بشكل مختلف حسب خبراته الثقافية والاجتماعية. فالمعنى لم يعد محصورًا في نية الكاتب الأصلية.

4. أمبيرتو إيكو وتوسّع السيميائيات

أمبيرتو إيكو (1932–2016) هو مفكّر إيطالي بارز جمع بين الأدب والفلسفة والسيميائيات. اهتم بدراسة العلامات والرموز في اللغة والثقافة، ووسّع السيميائيات لتشمل الأنظمة الثقافية بأكملها.

أ - العلامة عند إيكو: يؤكد ايكو أن العلامة ليست مجرد كلمة أو صورة، بل عنصر ضمن نظام اجتماعي وثقافي ولا تفهم الا في داخل السياق الذي تنتمي إليه. أي لا تملك معنى ثابتاً منفصلاً عن النظام الثقافي الذي تنتمي إليه (سعيدة، 2021). مثال: صورة العلم الوطني لا تفهم إلا إذا عرفنا الدولة، والتاريخ، والثقافة، والرموز المرتبطة بها. وكذلك الامر مع العلامات في الثقافة الهندية او الروسية، لا يمكن فهمها الا في اطار تلك الثقافة وفي سياقها .

ب. العلامة بين الفكر والواقع

يرى ايكو أن علم العلامات أو SEMIOTICS يدرس العلاقة بين العلامة والفكر والواقع. فكلّ فكر أو كلمة هي علامة تعبّر عن معنى ما، ولذلك فإن حياة الإنسان مليئة بتدفّق مستمر من العلامات. بل إن الإنسان نفسه يُعدّ علامة لأنه يفكّر ويتواصل عبر الرموز والكلمات.

ويلخّص إيكو العلاقة بين العلامة والواقع في عدة روابط أساسية، أهمها:

وجود علاقة بين شكل العلامات أو الملفوظات وطريقة التفكير، أي بين النظام المنطقي والنظام العلامي.

وجود علاقة بين العلامة والأشياء التي تشير إليها عبر المفهوم الموجود في الفكر.

ارتباط العلامات بالأحداث والوقائع التي تصفها، مما يربط النظام السيميائي بطبيعة الوجود والمعرفة.

وجود علاقة بين شكل العلامة وشكل الشيء الذي تشير إليه، كما في بعض الإشارات والرموز.

وجود علاقة وظيفية بين العلامة والموضوع الذي تدل عليه؛ فبدون هذه العلاقة تفقد العلامة معناها.

وتتداخل هذه الروابط مع بعضها، لأن النظام الرمزي الذي تشكّله العلامات يعكس الظواهر التي يصفها في الشكل والمضمون.

ج. الإنسان حيوان علاميّ

يؤكد إيكو أن الإنسان كائن رمزيّ أو علاميّ؛ لأنه يفهم العالم ويعبّر عنه من خلال الرموز والكلمات والصور. فالثقافة الإنسانية نشأت عندما استطاع الإنسان استخدام العلامات والرموز للتحكم في الطبيعة والوصول إلى التجريد الفكري.

كما يبيّن أن اختراع الأدوات والرموز يحتاج إلى ثلاثة عناصر:

وجود كائن مفكّر يحدّد وظيفة الأداة.

إعطاء الأداة اسمًا أو علامة لتمييزها.

التعرف عليها لاحقًا من خلال وظيفتها وتسميتها.

ويرى إيكو أن التفكير الإنساني مرتبط باللغة؛ فاللغة اللفظية هي الوسيلة الأساسية لترجمة الأفكار والتعبير عنها. لذلك فإن الإنسان يفهم ذاته والعالم من خلال شبكة من العلامات والأنظمة الرمزية التي تنظّم التواصل والمعرفة.

د. العلامة والحقيقة:

ويؤكد إيكو أن العلامات ليست حقائق مطلقة، بل هي نتاج ثقافي إنساني؛ فالإنسان يحوّل الظواهر الطبيعية إلى رموز وعلامات لغوية وفكرية تساعده على فهم العالم والتواصل مع الآخرين. ومن خلال هذه العملية يبني الإنسان ما يشبه المعجم الثقافي أو الدراية الموسوعية التي تنظّم معاني العلامات في المجتمع.

ويرى إيكو أن تاريخ الثقافة الإنسانية يمر بمرحلتين أساسيتين:

العصر الوسيط: حيث كان العقل واثقًا من نفسه وينتج علامات ثابتة ومؤكدة تمنح الإنسان شعورًا باليقين والاستقرار.

العصر الحديث: حيث أصبحت المعرفة قائمة على المغامرة والاحتمال، ولم تعد العلامات تحمل يقينًا نهائيًا.

ويرتبط هذا التحول بفكرة أن الحقيقة ليست واحدة ثابتة، بل متعددة ومفتوحة على إمكانات مختلفة. ويُشبَّه ذلك بتطور الهندسة؛ إذ كانت الهندسة الاقليدية قائمة على مسلّمات ثابتة، ثم ظهرت الهندسات اللاقليدية التي فتحت المجال لتعدد الأنظمة والمعايير. كما تأثر إيكو بأفكار هوسرل في الفينومينولوجيا، التي ترى أن الإدراك لا يحيط بالموضوع كاملاً، لأن كل جانب ندركه يحيل إلى جوانب أخرى غير مدركة. وكذلك تأثر بالفلسفة التفكيكية عند جاك دريدا التي تشكك في وجود حقيقة مطلقة.

لذلك يؤكد إيكو أن ما نملكه ليس حقائق نهائية بل تأويلات واحتمالات؛ فالحقيقة في نظره ليست شيئًا ثابتًا يمكن الإمساك به، بل هي عملية بحث مستمرة، حيث يظل الإنسان في محاولة دائمة لفهم العالم دون أن يصل إلى يقين نهائي. (زغيب، 2025)